المنار ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

(قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق)

(مصر في غرة رمضان سنة ١٣٢٠ — ١ ديسمبر (تشرين ١٧) سنة ١٩٠٢)

أيصومون ولا يصلون وهم مؤمنون

اذا كان الله تعالى قد منحنا الدين ليهدينا به الى سعادة الدارين ومنافع الحياتين فلا غرو ان يكون لكل عبادة فيه وجهان احدهما روحاني ينظر الى توثيق عقدة الايمان وتهذيب الاخلاق والآخر اجتماعي دنيوي ينظر في إحكام عرى الارتباط بين المؤمنين العابدين لتتأكد أخوّتهم، وتبرم جامعتهم، وتتحقق وحدتهم، وقد اهتدى علماء الاجتماع في هذه العصور الى وجوب توحيد عادات الامة لان الوفاق كلما كثر وتمدد ما به يكون اشتدت الأواخيّ وأمنت التراخي حتى يكون مجموع الافراد كالشخص الواحد. فتراهم قد اتفقوا في انواع العادات فهم يلبسون زيّاً واحداً ويأكلون في وقت واحد ويتنزهون في وقت واحد كما يتعلمون على طريقة واحدة ويتربون على مثال واحد. وبهذا صاروا كأنهم اهل بيت واحد يتعاطفون ويتعاضدون بل صاروا في مجموعهم كالجسد الواحد كما

ورد الحديث في وصف المؤمنين

الصوم والصلاة عبادتان علمتا المسلمين الاولين مراقبة الله تعالى والتوجه اليه وطلب مرضاته فصلحت نفوسهم وسمت هممهم وتهذبت أخلاقهم وعلمتاهم الاجتماع في اوقات معينة والأكل في اوقات متفقة فأرشدتاهم الى النظام وطرق الوحدة فصلحت احوالهم باطناً وظاهراً فكانوا كما قال الله تعالى في خطابهم: « إن هذه أمتكم امة واحدةً وانا ربكم فاعبدُونِ » أو كالبنيان يشد بعضه بعضاً كما ورد في الحديث

مضت سنة الاولين من أهل الملل ان الدين يضعف فيهم ويضمحل على هذا النحو — تزول حقيقته المعنوية اولاً ثم تزول بعدها صورته الظاهرة بالتدريج . الجسد الحيّ بقاؤه ببقاء روحه فاذا أزهقت الروح منه أسرع اليه الفساد ثم التلاشي والاضمحلال . وإنما تزهق روح الدين بأمراض تعرض لها بعد فقد الاطباء الروحانيين او إهمال خواص الامة لهم وتركهم طبهم لارواحهم عند مرضها . والسبب في رغبة هؤلاء عن مداواة نفوسهم هو أن الامراض التي تلم بهم مستلذة بل هي لا تعدو الإفراط في اللذة مع الجهل بالعاقبة وما وظيفة الدين الا هداية الانسان الى موقف الاعتدال في استعمال قواه الفكرية والنفسية لتبقى فطرته سليمة معتدلة

الصلاة افضل من الصيام لان سلطانها على الروح اعلى ، وجذبها إياه الى عالم القدس اقوى ، ولان تأثيرها في جمع القلوب والتأليف بين الافراد ابلغ ، وإشعارها نفوس الطبقات المختلفة معنى المساواة أشد ،

الصيام يذكّر النفس بالسلطان الالهي عند ما تعرض لها الطيبات في النهار فترى انها ممنوعة منها بأمر الله تعالى شأنه وعند الفطر والسحور

اذا تذكرت ان تغيير مواقيت الاكل انما كان لتحقيق هذه العبادة التي فرضها الباري جل جلاله على عباده ترويضاً لأرواحهم وجسومهم وتعويداً لهم على حكم قوام النفسية كيلا تفرط عليهم وتداني ليستمدوا بذلك كله لتقواه جل وعلا . واما الصلاة فكل قول من اقوالها وكل عمل من اعمالها فهو ينفخ هذا الروح الحي فيمن يقيم الصلاة لا في كل من يصلي لان فصلا بعيداً بين إقامة الشيء على وجهه وبين الاتيان بصورته كالفصل بين خلق الانسان وبين رسم صورته على لوح او جدار

اذا قال مقيم الصلاة : الله اكبر : أعطته هذه الكلمة من تجريد التفضيل في التكبير أن الله تعالى اكبر من كل ما يوجد ويتصور فيطمئن قلبه بالتنزيه وتستولي عليه هيبة الكبرياء والعظمة . ثم اذا قال : وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض : (وهو مستحضر أنه يعبر عن توجه قلبه ، الى حضرة معرفة ربه ») فان نفسه تسمو عن الالتفات الى الدنايا ، وتسمو عن الاشتغال بالخسائس ، وحسبك من الصلاة ما تعطيه هاتان الكلمتان فكيف بك اذا تدبرت سائر الاذكار والتلاوة وفقهت من ذلك القيام والقعود ، والركوع والسجود ،

كأني ببعض المنكرين الذين يحكمون على الدين وتأثيره عما يجدون في أنفسهم وما يعرفون من حال معاشريهم والناشئين معهم يقولون : إن هذه المعاني مخترعة ، وأسرار مبتدعة ، وخواطر سانحة ، وموازين غير راجحة ، . وعذرهم في ذلك الحرمان ، وعدم تدبر سيرة الذين سبقونا بالايمان ، ومن ذاق عرف ، ومن عرف وصف ، ولست واقفاً هنا موقف المناظر ، ولم أقصد بهذا القول إقناع المكابر ، وقد سبق للمشار

القول في بيان فوائد الصوم النفسيّة والبدنية والاجتماعية (فليراجع في المجلدين الثاني والرابع) وكذلك القول في فوائد الصلاة . وانما نريد الآن أن نذكر امراً غريباً في التصور ولكنه واقع شائع وهو ان كثيراً من الناس يصومون رمضان ولا يصلون الا في رمضان اولا يصلون مطلقاً .

الصوم من آيات الايمان فلا يجامع الكفر والجحود ولكن كيف يكون المرء مؤمناً بدين ثم هو يستبيح ترك افضل عباداته وآكد فرائضه وأعظم شعائره ، وما هي علة هذا الترك المطلق ، والإهمال المستغرق ، اذا كان الايمان هو الذي بعث ذلك الصائم على الصوم فلماذا لم يدعه دعاءً الى الصلاة التي تلي الايمان في المرتبة ؟ أيتصور ان يكون لعلة واحدة معلولات فتوجد ويتخلف عنها اول تلك المعلولات وأولاها ، ثم يوجد اضعفها واقصاها ؟ هذا موطن من مواطن العجب ، ولا بد من بيان السبب ،

قد يقال : اذا كان ترك الصلاة لا يجامع الايمان وترك الصيام لا يجامع الكفر فلا بد ان يكون من يصوم ولا يصلي في مرتبة بين المؤمن الصادق ، والكافر المارق ، وهو ما كانوا يدعونه المنافق ، فهو مرتاب يصوم لاحتمال صحة الدين ، ولا يصلي لفقد اليقين ، ويمكن ان يقال : ان صوم مثل هذا ليس من ثمرات الايمان ، وانما هو مجاراة للاهل والجيران ، فهو عادة لا عبادة ، ولو تركه المعاشرون والاقران ، لما بعث عليه القرآن ، ولذلك ترى الذين لا يبالون بالعادات لقوة عزائمهم في العمل بما يعتقدون قد تركوا الصوم فهم يحاربون الدين جهراً ولا يحترمون اهله ولا يجاملونهم من حيث هم به مستمسكون . ويصح ان يقال : ان من تاركي الصلاة المارق ، ومنهم المنافق ، ومنهم من يتركها لمرض الجهل والكسل لا لمرض

الارتياب او الجحود . ولذلك يصوم هذا صوماً حقيقياً فيه تقوى الله تعالى في امور كثيرة فهو يظمأ ويتصدى ولا يشرب في خلوته لعلمه بأن الله تعالى يراه ولا يرضى له ان يكون ضعيف النفس مغلوباً لشهوة الماء يعصي الله لاجلها. فان لم يلاحظ مثل هذا بالتفصيل فلا أقل من الاجمال

اما الجهل الذي يساعد الكسل على ترك الصلاة فهو ذو شعب كثيرة يوجد بعضها عند ابناء العصر الجديد وبعضها عند ابناء العصر العتيق . يقول أبناء العصر الجديد : ان الله تعالى لا يعذب الناس اذا قصّروا في عبادته لان الدين لا يصح أن يكون عقوبة للبشر وإنما فرضت الصلاة لتعين على تهذيب النفس ونحن قد تهذبت نفوسنا فلا نرضى لانفسنا أخلاق هؤلاء المصلين الذين فشا فيهم الكذب والغش والزور والطمع والدناءة الخ :

قول اشتبه حقه بباطله ومسلك الجهل فيه دقيق . ولنا ان نقول لهم صدقتم في قولكم ان الدين لا يصح ان يكون عقوبة بل هو رحمة من الله تعالى قال تعالى لنبيه « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » وقال في خطاب المكلفين « ولو شاء الله لأعنتكم » ولكنه لم يشأ فله الحمد والشكر . وقال جل ثناؤه « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وفي معناه قوله عز وجل « وما جعل عليكم في الدين من حرج » ولكن العقوبة على ترك الصلاة ليست من الحرج وانما هي من الرحمة فان الصلاة منفعة وترك المنفعة ضارّ لانه وقوع في الضد وهي واقعة في الدنيا ومعقولة فمن الجهل الارتياب فيها . ألا ينظر هؤلاء القائلون في صنفهم والذين تعلموا وتربوا مثلهم كيف تفتك فيهم الفواحش والمنكرات فتذهب بمالهم وبصحتهم وتكبل بلادهم بالسلاسل والأغلال

وتسلمها إلى الأجانب . وإذا وجد فيهم أفراد ساعدهم الاستعداد الفطري وما يسمونه (الظروف) والوراثة الطبيعية اسلافهم المصلين على تهذيب نفوسهم فهل استغنوا بهذا التهذيب الذي امتازوا به على العدد الكثير من أمتهم المريضة عن تكميل نفوسهم بمناجاة الله تعالى . أليس لكل واحد منهم أمراض نفسية لو أقام الصلاة لوجد فيها شفاءها . منهم الهلوع الذي يجزع لكل شر يصيبه حتى كأنه امرأة ضعيفة أو طفل صغير والذي اذا أصابه الخير امسكه عن إعانة الضعيف، وإغاثة الملهيف ، بل الذي لا يخرج منه الحق الثابت عليه الا نكداً . وإذا فرضنا أن جهله بحقيقة نفسه وحقيقة الصلاة زين له عدم حاجته اليها ولو لشكر الله تعالى وحفظ شعار الدين الذي ينتمي اليه فهل يزين له أيضاً أن أهله من زوجة وبنين وبنات في غنى عن هذه الصلاة؟ وإذا لم يكونوا في غنى عنها فهل يرى أن إقامتهم إياها من الأمور السهلة إذا كان هو لا يصلي ؟؟ أما صلاة فاسدي الأخلاق لذين يتمثل بهم هؤلاء فهي شبيهة بصيامهم أي إنها محاكاة وتمثيل لهيأة الصلاة الظاهرة .

وجملة القول في جواب هؤلاء ان اعتذارهم بعدم العقوبة على ترك الصلاة غير سديد وأنهم لم يفهموا معنى الصلاة فيفهموا معنى العقوبة على تركها . ولو فقهوا تأثيرها في النهي عن الفحشاء والمنكر لفقهوا معنى كونها رحمة تزكي النفس فتفلح في الدنيا والآخرة . وكون تركها نقمة تدسي النفس وتسهل لها سبل الفواحش والمنكرات فتسلكها فتخسر في الدنيا والآخرة . لو تأمل المتأمل المؤمن بالله معناها وما وصفها به الكتاب العزيز لفقه ذلك . ولو علم انها الآية الكبرى في انقلاب أحوال مسلمي الصدر الأول وتبدل أخلاقهم وسجاياهم لفقه ذلك . ولو كان عندنا اليوم عدد من مقيمي الصلاة

لاستغنينا عن هذا وذلك في تعليم الجاهل، وتنبيه الغافل، واقناع المجادل،

هذا ما يقول لنا أبناء العصر الجديد وما نقول لهم الآن بالايجاز، وان لنا لعودة نفصل فيها القول تفصيلا ان شاء الله) وأما ابناء العصر العتيق فان لهم من الضلال في فهم الشفاعات والمكفرات، والانتساب الى أصحاب الاضرحة والمقامات، ما يصرفهم عن اقامة الصلاة، ويغلّ أيديهم عن أداء الزكاة، فكيف إذا أضافوا إلى ذلك الغرور بالله والتشدق بذكر الرحمة والمغفرة. وقد كشفنا من قبل جميع هذه الشبهات وأن أكبر آية على ضلالهم في فهمهما سوء تأثير هذا الفهم فيهم حتى انتهى بهدم أركان الاسلام وترك شعائره فكاد ينطمس مبناه، بعد ما جهل معناه، ولكن خطباء الفتنة وعلماء السوء هم الذين يروجون هذه الاضاليل فهم قادة المقلدين، وعونهم على إضاعة الدنيا والدين، وكأنك بغربانهم تنعق على اعواد المنابر بهذه المكفرات ومنها المكذوب على الله ورسوله كقولهم: إن الله يعتق فى كل ليلة من رمضان ستمئة الف عتيق من النار فاذا كان آخر ليلة منه اعتق بقدر ما مضى: وامثال ذلك. وفي أقوالهم ما تصح روايته ولكن الفساد فى جهل معناه. لذلك نرى اكثر العامة يصومون ولا يصلون ولا يزكون، ومنهم الذين لا يحلّون ولا يحرمون،

الصوم اسهل على النفس من المحافظة على الصلاة ومن إيتاء الزكاة. فهو الرسم الباقي عند اكثر المسلمين فاذا درس (والعياذ بالله تعالى) كان دروسه خطراً كبيراً على الرابطة الاسلامية. لهذا نرى ان الذين يجاهرون بالإفطار في رمضان من المسلمين الجغرافيين أشد فتكا بالاسلام والمسلمين من كل مخالف يطعن بعقائدهم او يستأثر بسياستهم. ومن العجيب ان يوجد فيهم

من يتشدق بكلمة الوطن او الامة . واعجب العجب ان بعضهم يذكر الاسلام ويظهر انه يتمنى عزته . ويحاول خدمته،

اذا كان تارك الصلاة إنما يتركها تثاقلا من مقدماتها وشروطها وتكرارها فانا أدله على ما يذهب بثقل هذه الامور كلها ويسهل عليه ما عسره اختلاف الفقهاء . وإنما يكون ذلك بالرجوع الى اصل الدين، والعمل بما اتفق عليه جميع المسلمين ، فأما الطهارة فالفرض منها النظافة وهي مما يرغب فيه كل كريم النفس ويتحراه بحسب استطاعته واما كون التنزه عن القليل من النجاسة والكثير شرطاً لصحة الصلاة فما اختلف فيه السلف الصالح والائمة المجتهدون فليتحر الانسان التنزه احتياطاً الا اذا عسر عليه ولماذا يحتاط لقول بعض الفقهاء حتى يترك الصلاة احتياطاً ولا يعمل بقول من لا يرى الشرطية ويقيم ركن الدين الركين احتياطاً . بل ان الذين اشترطوا طهارة الثوب والبدن للصلاة قالوا ان المشقة تجلب التيسير ولا حرج في الدين فمن صعب عليه الاحتراز من شيء فله رخصة فيه

وأما الوضوء فهو اسهل شيء اذا روعيت السنة ونبذت الوسوسة فقد ورد ان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم توضأ ولم يقع شيء من ماء وضوئه على الارض فيسهل على العارف بالسنة ان يتوضأ من كوب ماء (كوبايه) وهو واقف او قاعد لا سيما اذا كان يمسح على ما يستر رجله ولو جوربا من قطن او صوف فان ذلك جائز عند كثير من الصحابة والتابعين وعليه الامام احمد

واما تعدد الصلاة فخير لصاحب الشغل الكثير من الترك ان يأخذ بالحديث الذي رواه مسلم في صحيحه والشافعي في سننه وغيرهما وهو ان

النبي صلى بالصحابة الظهر والعصر في وقت واحد والمغرب والعشاء في وقت واحد « من غير مرض ولا سفر » وقد اوّل اكثر الفقهاء الحديث فحمله الشافعية على وقت المطر والمالكية على تأخير الاولى والتعجيل بالثانية ولكن في بعض رواياته عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تعليل ذلك بقوله « لئلا يحرج امته » فدل هذا على ان هذا الجمع رخصة والعزيمة في اداء الصلاة في وقتها أفضل ولكن الرخصة اولى من الترك كما هو واقع ٠

كل واحد من هؤلاء المترفين الذين يتثاقلون عن اداء الصلاة يغسل أطرافه عند القيام من النوم فاذا جعل ذلك الغسل موافقاً للوضوء الشرعي وصلى ركعتين شكراً لله تعالى وحفظاً لافضل شعار يربطه بأمته وتعليما لمن يعيش معهم للدين بالعمل او حملالهم على التأسي به فاي ثقل عليه؛ ثم اذا فعل مثل ذلك في وقت الظهيرة إذ يسكن الى الراحة او وقت الاصيل إذا شغل وقت الظهيرة فاي تعب في ذلك وهو عمل لا يستغرق ربع ساعة؟ وكذلك وقت العشيّ عند ما يستريح من عمل النهار

اختم القول بتذكير أبناء العصر الجديد بمسألة هم أعرف بتفصيلها من سواهم . وهي أن الأمم الحية تحافظ على عاداتها القومية وشعائرها الملية وان كانت تعتقد انها وضعية فلا يرضى أهل الرأي منهم بترك شيء من ذلك الا اذا تبين لهم انه ضارّ ضرراً كبيراً لا ينفع فيه حفظ الرابطة العامة بالثبات عليه ثم إنهم يتروّون في ذلك التروي الواجب . فما بالكم وانتم تقلدونهم في الزي والحركة في الطريق (لا في العمل) وفي الماعون والاثاث لا تقلدونهم في الثبات على شعائركم والمحافظة على روابط جامعتكم ؛ تعلمون انهم ما تركوا شيئاً الا بعد ان استبدلوا به ما رأوه خيراً منه فماذا استبدلتم بهذه الشعائر

الاسلامية النافعة ، والروابط الملية الجامعة ، التي تتركونها بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ؛ ألا إنكم تستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير تحلون عرى جامعتكم التي فيها عزكم وشرفكم في الدنيا وسعادتكم في الآخرة وأنتم لا تشعرون ، فتوبوا الى الله لعلكم تفلحون ،

تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس من دروس مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده في الازهر)

يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَاتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ .

تقدم تذكير بني اسرئيل بالنعمة في آية قبل هذه الآية مقرونا بالامر بالوفاء بعهد الله وبالوعد بالجزاء عليه ثم الامر بالخشية منه وحده وتلاها آيات أمرهم فيها بالايمان بالقرآن ونهاهم عن لبس الحق بالباطل وكتمانه . ثم امرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ثم وبخهم على نسيان أنفسهم من البر مع امر الناس به وتلاوة الكتاب الداعي اليه ودلهم على الطريق الذي يذهب بهذا النسيان وهو الصبر والصلاة التي فقدوها بفقد روحها وهو الاخلاص والخشوع . وبعد هذا عاد الى التذكير بالنعمة بنوع من التفصيل فان النعمة في الآية الاولى مجملة والإجمال ينبه الفكر الى التذكر في الجملة فاذا تلاه التفصيل والبيان كان على استعداد تام لكمال الفهم فيكون التذكر أتم والتأثر أقوى والشكر على النعمه أرجى